شعر الثغور الإسلامية في عصر صدر الإسلام

د. عبد الله فتحي الظاهر(*)

الثغور جمع الثغر وهو موطن المخافة من فروج البلدان أو أطرافها وقد يكون بين الجبال أو على سواحل المياه(١).

والثغور الإسلامية هي تلك الأماكن أو المدن التي فتحها المسلمون وسكنها بعض المجاهدين لينطلقوا إلى حيث الموطن التالي لفتحه، أو لأداء مهمة الدعوة إلى الله فيه أو في ما جاوره من الأماكن، وتثبيت دعائم الإسلام فيها، فقد خرج المسلمون من جزيرة العرب، بعد أن دانت كلها بالإسلام، خرجوا إلى شمالها وشرقها وغربها مكتسحين ملك الاكاسرة وممزقين ملك الروم وإمبراطوريتهم فقد أمد الله تعالى الفاتحين بطاقات إيمانية روحية هائلة، مكنتهم من بث نور الله تعالى إلى بقاع الدنيا، وقد استبد بهم الشوق إلى ميادين القتال مندفعين بيقين صادق بنصر الله تعالى ليقيموا أسس الدعوة على أنقاض الضلالة في زمن قصير جدا.

ولقد اذكت حركة الجهاد تلك جذوة الشعر فأطلقت للشعراء وللمغمورين منهم خاصة ألسنتهم بالشعر كما أنطقت بالشعر كثيرين ممن لم يكونوا قد عرفوا به، وسارت بما جادت به قرائحهم الركبان، فقد كانت أشعارهم الجهادية أناشيد ألهبت حماس المجاهدين الفاتحين وكانت بعد أن قربهم القرار مسلاة وتنفيسا عمن أقام من

(*) أستاذ مساعد / قسم اللغة العربية.

(١) لسان العرب المحيط، جمال الدين منظور(ت ٧١١هـ) ط بولاق مادة ثغر، والمعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة العربية طهران ٩٦/١.

الفاتحين في الثغور النائية ولم يطب له المقام فيها لأسباب عديدة منها: الحس بالغربة والحنين للأحبة ولوعة الفراق، ومنها: اختلاف الظروف المناخية واختلاف التضاريس في الثغور التي فتحوها، واستقروا بها أو اختلاف سوح القتال في تلك البلاد عن ظروف بلادهم ومغانيها ومرابع الصبا فيها ومزارات الأحبة والأهل، حتى لقد أحالت تلك الظروف أغلب الفاتحين شعراء تشهد بذلك نتاجات حركة الفتوح الشعرية التي حفظتها كتب التاريخ وتاريخ الأدب والتراث العربي الإسلامي،(٢) لقد كان اغلب تلك النتاجات وثائق تاريخية وشهادات لأولئك الأبطال بالفروسية والإقدام، وذلك أنها نقلت لنا صورا دقيقة لقتالهم وتفانيهم في سبيل النصر، كما نقلت صدق اعتقادهم ويقينهم بفكرة الجهاد ، ورثت الشهداء ووصفت المشاهد الغريبة، ونقلت أحاسيس الجند المقيمين منهم خاصة بتلك البلاد، ما بين ضائق بها ومرتاح لها، ونقلت لنا ملاحظات ونقدا ونصائح قدمها بعض المجاهدين لبعض العمال، في الثغور وسوى ذلك، وكانت تلك الأشعار كلها في محاور عديدة يربطها سبب واحد هو الجهاد، واهم تلك المحاور:

١. وصف القتال والافتخار بصدق الجهاد

حين انطلق المجاهد المسلم من جزيرة العرب إلى الآفاق البعيدة التي لم يستشرفها من قبل فاتحا وهاديا، وحقق الله تعالى وعده ونصر عبده بهره النصر

(٢) ينظر تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) حققه محمد ابو الفضل إبراهيم ج٣، ومروج الذهب، أبو الحسن المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) حققه محمد محي الدين عبد الحميد مط السعادة ط٤ ١٩٦٤ ج٢ وشعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام النعمان عبد المتعال القضي، الدار القومية ١٩٦٥، والشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، الموصل، علي كمال الفهادي ١٩٩٠.

المؤزّر ذاك، فراح يصور كل حركة أدّاها هو وجماعة المجاهدين في تلك المعارك، وكان الشعر مطية سهلة ذلولاً حملت كل معانيهم الجهادية، بل لقد كان الرئة التي تنفس خلالها ما اختزن في النفوس العربية ابان تلك الحقبة، فقد فتحت الفتوح أمام الشعر مجالات واسعة، ووضعت أمام الشعراء مواقف شبيهة بالمواقف التي ألفوها وألفها الشعر قبل الإسلام، وإن اختلف الهدف بين المواقف اختلافاً شاسعاً، إلا أنها قد أزاحت حرج الشعراء وفتحت أمامهم أبواباً كان طرقها محظوراً في ظلال الفكرة الإسلامية، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفاخر بقومه، ماداموا جميعاً يذودون عن العقيدة، ويبذلون الأرواح رخيصة في سبيلها، أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحرافاً عن حدوده المهمة التي نيطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبيات[٣]... ومن ذلك الوصف والمفاخرة ما قاله خليد بن المنذر بعد معركة طاووس، وهي في أطراف بلاد فارس[٤]:

بطاووسَ ناهبنا الملوكَ وخيلَنا ... عشية شهراك علونَ الرواسي

أطاحتْ جموعَ الفُرس في رأس حالقٍ ... تراهُ كمَوّار السحابِ مُناغيا

فلا يعبدنَّ الله قومٌ تتابعوا ... فقد خَضَبوا يومَ اللقاءِ العواليا

إنه يفاخر فخرا جماعيا مبيّنا قوة جند الإسلام الفاتحين وخذلان ملوك الفرس وقادتهم وجندهم بل انه يؤكد أن خيل الله علت معاقلهم فضلا عن فرسانهم، ولم يكن ذلك من غير تضحيات فلقد خضب جند الله تلك القلاع بدمائهم الزاكية ونالوا بذلك نصر الله تعالى.

---

(٣) ينظر شعر الفتوح الإسلامية، ١٧٦.

(٤) معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) دار صادر، بيروت ١٣٧٤.

لقد كان الجندي المسلم مثلاً للخلق الرفيع، وكان الإنصاف صفة لازمة تبدو في اعترافهم بشجاعة عدوهم، على الرغم مما فيها من الإيحاء بشجاعتهم هم وتمكنهم من زمام المعارك، فهذا نافع بن الأسود يصف معركة في أحد أطراف البلاد الشرقية بعد أن مرّغ المسلمون يزد جرد في التراب وحطّموا شموخه(٥):

ونحن قتلنا يَزْدَ جُرْدَ ببعجـــةٍ ... من الرُعبِ إذ ولّى الفرارَ وغارا

غداةَ لقينـاهم بمروَ تخالُـــهم ... نمورا على تلكَ الجبال ونـــارا

قتلناهمُ في حربةٍ طحنتْ بـهم ... غداةَ الرُزيق إذ أرادَ جِـــوارا

ضَمَمنا عليهم جانبيَهم بصادقٍ ... من الطعن مادامَ النهارُ نهـــارا

فوَ اللهِ لولا الله لا شئَ غيـره ... لعادتْ عليهم بالرّزيق بَـــوارا

لقد أسقط هؤلاء الأبطال أسرة آل ساسان، وهذه المقطوعة من جيد الصور التي رسمت لنا تلك النهاية المخزية، والهزيمة النكراء، وكل ذلك بفضل الإيمان الصادق والإقدام المخلص، فهذا قائد الفرس يموت رعبا قبل أن تناله سيوف المجاهدين،وكان قد فرّ إلى مرو فلاحقه القدر حتى أثخنته الرهبة عند مرو، ولم تغنه فلوله منهم نجاةً ليموت هناك بالرعب ثم تصيبه ضربة سيف تبعج بطنه فيقضي.

أما رجالهم فتنهار قواهم بعد تشرذم حتى تبيدَ بين ثقال الرحى المجاهدة. وفي المقطوعة تشبيه لجند العدو بالنمور بجامع الشراسة والقوة، ولا يخفى إيحاء الصورة الرفيع، فالنمور معروفة بالحقد واللؤم أما النار فتأكل بعضها.

---

(٥) معجم البلدان ٤ / ٥٣٢ وشعراء إسلاميون، د. نوري القيسي، عالم المعرفة ٢ / ٢٩٥ مكتبة النهضة ط٢ بيروت ١٩٨٤، ص٩٦.

أما أبو مفزّر فيقول بعد معركة ضارية اشتد اوارها بين المسلمين والفرس[٦]:

لقينا يوم اليس وأمغا ... ويوم المقر آساد النهار
فلم أر مثلها فضلات حرب ... أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفا ... بقية حربهم غب الاسار
سوى من ليس يحصى من قتيل ... ومن قد غال جولان الغبار

لذلك حق للأسود أن يفاخر بنصر حازوه على الرغم من قوة العدو، فقد اجتمع الفرس ومن آزرهم من شراذم العرب الموتورين هذا اليوم، ولقد كان الموقف صعبا حتى لقد اضطر خالد بن الوليد لصلاة الخوف، ولكن يد الله تعالى كانت فوق أيديهم فنصر جنده واعزهم.

ويصف القعقاع بطولة المجاهدين في موقعة نهاوند فيقول[٧]:

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا ... لشر ليال انتجت للاعاجم
ملأنا شعابا في نهاوند منهم ... رجالا وخيلا أضمرت بالعزائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا ... فلم ينجه منها انفساح المخارم

لقد ضاقت على العدو الأرض بما رحبت، فعلى الرغم من وجود مخارم بين الجبال تسمح للهاربين بالعبور، لم يتمكنوا من اجتيازها لما نالهم من رعب شديد حتى يكاد المصيخ السمع أن يسمع ضربات قلوب المنهزمين، وفي القطعة على قصرها صورة بصرية والحركة واضحة تدركها الحواس بسهولة.

---

(٦) شعراء إسلاميون، ١٢١.

(٧) معجم البلدان، ٤ / ٨٣٨.

إن هذه القطعة الشعرية وما سبقتها وكثير من أشعار الفاتحين مما وصفوا به بطولاتهم وفاخروا وأنصفوا ... تعد بحق محاولات ناجحة متقدمة سجلها مجاهدو صدر الإسلام لشعر الحرب في الأدب العربي(٨).

إن فخر المجاهدين كثيرا ما يكون مترجماً الشعور الجماعي بالرفعة والشموخ والعزة، كذلك فنحن نقرأ ما يوحي بالجماعة في أشعارهم، الجماعة الإسلامية لا العصبية القبلية، وما يؤكد ذلك ذكرهم انتماءهم إلى هذا الدين، وتكاد لفظة (نحن) (تكون دائمة في كل القصائد تقريبا ...)(٩) ولنقرأ أبياتا لربعي بن عامر أستهلها بضمير الجماعة في رحلة الفتح الطويلة(١٠):

ونحن وردنا من هراةَ مناهلاً رواءً من المروين إنْ كنتَ جاهلا

ومما تظهر فيه صفة الجماعة قول عاصم بن عمرو(١١):

ضربنا حماة النرسيان بكَسْكَرٍ غداةَ لقيناهم ببيضٍ بواتر

وفزنا على الايام والحربُ لاقحٌ بجردٍ حسانٍ أو برودٍ غرائر

ابحنا حمى قومٍ وكان حِماهُم حراما على مَن رامَهُ بالعساكر

وقوله(١٢):

والله أورثنا من فضلِ نعمتهِ أرضَ السواد وأسواقَ السماسير

(٨) ينظر الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب الشعر، د. مصطفى الشكعة دار الكتاب اللبناني ط٢ ١٩٧٤، ص ١١٧.

(٩) م.ن.

(١٠) معجم البلدان ٤ / ٦٥.

(١١) شعراء إسلاميون، ٦٢.

(١٢) شعراء إسلاميون وينظر شعر الفتوح، ١٣٠ ـ ١٣١.

وكيف لا يكون الافتخار وقد كان أول لقاء لهم مع الفرس في النمارق ليخذلوا جند الفرس وينتصروا على رستم ويأسروا قائديه جابان ومروان شاه، ويمضي الفاتحون مستبيحين أرضهم يجوسون خلالها، وقد نالوا أكتاف الفرس حتى فزعوا إلى طلب الصلح فقدموا الهدايا من أطعمة وتمر وسواهما ... ودانت النرسيان وتلك القرى للمسلمين، ومدّ الإسلام على تلك البلاد ظلاله.

إن الأمثلة في أشعار المجاهدين في الثغور الإسلامية كثيرة تؤكد حسن تلاحمهم ودقة مشاعرهم ودقة وصفهم لتلك المعارك...

٢. رثاء المجاهدين الشهداء

الرثاء غرض قائم بذاته في أشعار المجاهدين في الثغور الإسلامية يلزمهم بذلك الشعور بالغربة وحقوق الاخوة الإسلامية، لذلك فالشاعر المجاهد يشيد بفعال أخيه المجاهد الشهيد ويعدد مآثره وبطولاته وقد يذكر غربته، كل أولئك بكلام تشيع فيه نبرات التأبين وفكرة العزاء الإسلامية المتمثلة بالتسليم لله تعالى بما قدر والرضا بحكمه جل وعلا، واليقين العميق برفعة مكانة الشهيد عند الله تعالى والناس، من ذلك أبيات لأبي عامر بن غيلان، وقد لحق بابنه فأدركه في بلاد الغربة، أحد ثغور بلاد المسلمين. شهيدا، عندها قال[١٣]:

عيني تجودُ بدمعِها الهتّان سحّاً وتبكي فارسَ الفرسان

لو استطيعُ جعلتُ مني عامرا تحتَ الضلوع وكلُّ حيٍّ فان

(١٣) الاصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) حققه علي البجاوي، دار نهضة، مصر ١٩٧٢، ١٤/٣.

انه ينظر في قوله تعالى (كلُّ مَنْ عليَها فانٍ) (الرحمن /٢٦) ويرضى بما قدر الله تعالى ويحتسب في ذلك اجره على الله تعالى، ولم يخل البيتان من صورة للعزاء الإسلامي مع شحنة الألم فيها، فالموت ليس غيبا، والأب الثاكل يدعو نفسه للتجلد والصبر غير أن قافية البيتين تتيح للنفس الامتداد فيما يشبه النواح مع ما توحيه غنة النون من أنة الحزن والألم المختزن في أعماق نفسه وأظهرها هذا التركيب الفني، فالعين لا تجود حين اسند الجود إلى عينه، وانما يجود صاحبها، ولما كانت العين جزءا منه اسند إليها فعل الجود، وذلك مجاز عقلي، وفي البيت كذلك استعارة مكنية تشخيصية، شخص فيها العين في صورة سحاب يسح ماء غزيرا، ثم حذف المشبه الذي استعار منه الصورة وهو السحاب وأبقى شيئا من لوازمه في قوله (سحا)، وكما يبدو في هذين البيتين أن اللغة الشعرية المجازية واضحة كما هي في اغلب المقاطع الشعرية، شواهد هذا البحث، وذلك هو عماد الشعر.

ونقرأ أبياتا لكثير النهشلي المجاهد في جيش الأقرع، بن حابس يرثي بها شهداء الجوزجان والطالقان ثم يعرج إلى نفسه فيرثيها بصدق، وحس مرهف(١٤).

سقى مزنُ السحابِ اذا استهلّتْ ... مصارعَ فتيةٍ بالجوزَجان

ومابي أن أكونُ جزعتُ إلا ... حنينَ القلبِ للبرق اليماني

وربّ أخ اصابَ الموتُ قبلي ... بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكاني

إلى أن يقول مخاطبا رفيقه على طريقة الشعراء القدماء:

فلا تستبعدا يومي فانّي ... ساوشكُ مرةً أن تفقداني

ويدركني الذي لا بد منه ... وإن اشفقتُ من خوفِ الجنان

(١٤) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب، ٢٧٨/١١.

وتبكيني نوائحُ معْولاتُ تُركنَ بدار معتركِ الزمـــان

حبائسَ بالعراق منهنهاتٍ سواجي الطرفِ كالبقَر الهجاني

في هذه الأبيات يبرز المعنى الإسلامي للدعاء بالسقيا، فقد كان الدعاء بالسقيا للأموات رضاء للهامة أو الصدى لتهدا الروح الحائرة وتستقر لاعتقادهم بان الموتى يمارسون حياة عادية في القبر فيعطشون ويشربون[١٥]، غير أن الدعاء بالسقيا في التصور الإسلامي يكمن فيه طلب الرحمة من الله تعالى للميت، لأنهم كانوا يجرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام، وطلب الغفران والرضوان فإذا استسقى أحدهم لقبر ميت أو شهيد فانه يأمل أن ينبت عليه العشب ولعل العشب هذا يستغفر للميت ما لم ييبس، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه اخذ سعفة وقسمها قسمين فوضعهما على قبرين يعذب من فيهما، أو انه اخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز في كلّ قبر منهما واحدة، فقالوا: لم فعلت هذا يا رسول الله؟ قال: (لعله يُخفف عنهما ما لم ييبسا)[١٦] أي يخفف عنهما العذاب، ورجاء النبي عليه السلام محقق بإذن الله تعالى. فالدعاء بالسقيا لقبر الميت هو طلب الرحمة له... ولم يكن هذا المفهوم مقصودا في عصر ما قبل الإسلام، ويعود الشاعر فيقرن الحنين إلى الوطن مع بكاء الشهداء، فقد بكى شهداء الجوز جان ورثاهم واستذكر البلاد وقد هاجت في حشاه آلام البعد والفراق والحنين إلى الأهل والوطن[١٧] ونحن إذ نقرأ هذا الرثاء الصادق نستذكر قصيدة مالك بن الريب التي رثى فيها نفسه عند فتح المسلمين خراسان ومطلعها[١٨]:

---

(١٥) ينظر: المطر في الشعر الجاهلي، د. انور أبو سويلم، دار عمار ط١ عمان ١٩٨٧ ـ ١٩٨٠.

(١٦) سنن النسائي، أبو عبد الله بن شعيب (ت ٣٠٣هـ) مطبعة البابي الجلبي ط١ ١٩٤٦ ٨٧/٤.

(١٧) ينظر: الطبيعة في شعر صدر الإسلام، رسالة دكتوراه، جامعة الموصل، كلية الآداب ١٩٩٦ ص٢٣.

(١٨) الأغاني، دار الثقافة ٢٣ / ٣٢٠ والعقد الفريد ٢ / ١٨٧.

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة بجنب الغضا ازجي الغلاص النواجيا

فقد اشترك الاثنان في صدق المشاعر ووحدة الموضوع، وانهما أرسلا كلماتهما من ارض الغربة ابان جهادهما الكفر شأن المجاهدين الشعراء حين يعبرون بصدق ولوعة ويؤكدون أن الحزن لا يفعل في نفوسهم الا ما يحفزهم لبذل ارواحهم في سبيل الله كما فعل إخوانهم من قبل[١٩].

٣. الحس بالغربة والحنين إلى الأهل والوطن:

ظلت طبيعة العربي ممثلة في الارتباط بالأهل وبالأرض بسهولها وبطونها وصحاراها وكثبانها وجبالها وما جرى أو استقر عليها من مياه وما شيد عليها من مساكن أو أقيم من بيوت. فالأرض ميدان فسيح تزخر أشعار المجاهدين بذكرها على سبيل الحنين خاصة، ولقد كان للأرض والوطن اثر كبير في حياة المجاهدين المهاجرين منهم والمرابطين في الثغور خاصة. فهذا سيد الخلائق صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الكف عن الحديث عن مكة لما كان يعانيه هو والمهاجرون من حنين إليها بعد غربة عاشوها أول أمرهم حتى دعا عليه الصلاة والسلام للمدينة لتشارك مكة حبّ المسلمين لها فقال: (اللهم حبّب الينا المدينة كحبّنا مكة أو اشد...)[٢٠] لتغادرها صفة دار الغربة، فتهدأ تلك الفورة المستمرة وذلك التطلع إلى ارض مكة المستمر حتى يحين الأجل ليعودوا إليها فاتحين، فتكتحل برؤيتها العيون وتتحقق الأماني، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سأل أصيلا الغفاري، فقال يا أصيل، كيف عهدت مكة؟ قال: والله عهدتها اخصب

(١٩) ينظر: تاريخ الطبري ٥ / ٣٢٨ ومروج الذهب ٢ / ٢٠٦ والإصابة ٥ / ٦٠.

(٢٠) تنظر السيرة النبوية، ابن هشام ١٢ / ٥٨٩.

جنابها.... وأغدق اذخرها[٢١]... فقال: (حسبك يا أصيل، لا تحزنا)[٢٢] وكان عليه السلام يخاطب ارض مكة ويقول: (والله انك لخير ارض الله إلى الله وأحب ارض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت) وقال: (.... وما خرجت عنك رغبة ولكن الذين كفروا هم أخرجوني)[٢٣] فالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون المهاجرون على الرغم من كونهم مجاهدين في سبيل الله، كانوا يعانون من الشعور بالغربة، ولقد كان لمن يصبر على لاوائها من المهاجرين والرابطين أجر كبير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يصبر على لاوائها وشدتها أحد الا كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة)[٢٤] ومما روي في شأن المجاهدين والمرابطين في الثغور قوله صلى الله عليه وسلم: (هل تدرون من أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا: الله ورسوله اعلم قال: أول من يدخل الجنة من خلق الله، الفقراء والمهاجرون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. فيقول الله عز وجل لمن شاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فيقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتامرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: انهم كانوا عبادا، يعبدوني لا يشركون بي شيئا وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[٢٥] وللغرباء في الحديث الشريف

(٢١) تنظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١ / ٥٨٩.

(٢٢) أخبار مكة، الازرقي ٢ / ١٥٥.

(٢٣) أخبار مكة، الازرقي ٢ / ١٥٥.

(٢٤) صحيح مسلم ٩ / ١٥١ ومسند الإمام احمد ٩ / ٣٣.

(٢٥) مسند الإمام احمد ١٠ / ١٠٣.

نصيب من الدعاء من ذلك قوله عليه السلام: (طوبى للغرباء)[٢٦] ولقد اثر عن الصحابة الكرام كلمات كثيرة في حق البلاد، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في الوطن وحبه (لولا حب الوطن لخرب بلد السوء)[٢٧] أما السيدة عائشة رضي الله عنها فقد هاجرت إلى المدينة ولم تر السماء قط، بمكان اقرب إلى الأرض منها بمكة، لأنها الوطن الذي استحوذ حبه على تفكيرها تقول: (لولا الهجرة لسكنت مكة...)[٢٨] فإذا كانت هذه مشاعر أولئك الأفذاذ تجاه الوطن، فكيف بالجند المنساحين بعيدا عن الوطن.

أن انسياح العربي المجاهد في ارض الله الواسعة مؤديا واجبا كالفتح والدعوة إلى الله تعالى فجر فيه حنيناً وشوقاً عظيمين عميقين إلى مرابعه وملاعب صباه وذويه وأرسل من اجل ذلك مشاعر صادقة جاءت أشعاراً رقيقة فياضة تصاحبها عبرات سخينة لا تقدح بصدق إخلاصه وبحبه وشوقه إلى الجهاد في البلاد البعيدة ولا تصادم المبادئ التي يحملها إلى العالم اجمع، بل تؤكد صدق مشاعره ورهافة حسه وعفويته وارتباطه بالأرض، فهذا واحد من أولئك المرابطين في البلاد الغريبة يذكر موطنه نجداً فيحن إليه ويبكيه، فهو يرى انه يستنشق المسك في كل نسمة تهب من صوب نجد وكأنه يقف على مشارفها ينظر إليها ويحاول أن يصيب منها نظرات خلسة.... بيد انه يعود فيرى البعد على الحقيقة وأن بينهما جبالاً وفيافي فيقول[٢٩]:

---

(٢٦) م.ن ١٠ / ١٥٣.

(٢٧) المحاسن والمساوئ للبيهقي ٢ / ٣٢٦.

(٢٨) أخبار مكة ٢ / ١٥٣.

(٢٩) معجم البلدان ٤ / ٧٤٧ والأخبار، الطوال ١٣٨ وينظر بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير ٤١٧.

اكرّرُ طرفي نحوَ نجدٍ وإنني ... برُغمي وإن لم يدرك الطرفُ انظرُ
حنينا إلى أرض كأنّ ترابَها ... اذا أمطرتْ مسكٌ وعودٌ وعنبرُ
أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي ... خيامُ بنجدٍ دونَها الطرفُ يقصرُ
وما نظري من نحو نجدٍ بنافعٍ ... أجلْ لا ولكنّي إلى ذاكَ انظرُ
أفي كلّ يومٍ نظرة ثمّ عبرة ... لعينكَ مجرى مائِها يتحدرُ

والشاعر يؤكد صدق حالته الشعورية حين يأتي في مقطوعته بكناية عن صفة ذلك الشوق والحنين إلى ارض نجد. كناية مركبة عن طريق تكرار طرفة صوب نجد. ففي قوله: (كأن ترابها ... مسك...) صورة تشبيهية شمية رائعة تعبرعن طيب تلك التربة وطيب نسائمها وبخاصة غبّ مزنة تجودبها السماء على صعيدها.

وتشخص بمجاهد آخر بصيرته إلى منازل طيء هناك في قلب جزيرة العرب منفلتة من المكان الذي قادته سيوف الجهاد فرجعت إليه بخيال حبيبته، لذلك فهو يستهل تصوير حاله في غربة شعورية توقدها أهوال الحرب وتهدهدها بشائر النصر ... ولذلك يقول:(٣٠)

ألا طرقت رحلي وقد نامَ صُحبتي ... بايوان سيرينَ المزخرفِ خلّتي

ففي هذا البيت تبرز صورة الشاعر الذي جفا النوم عينه وفارقه لذيذ الكرى، أما أصحابه فنيام.

وتنطلق بنا المخيلة متلمّسة ما وراء هذه الصورة من أحاسيس، وليس من شك أن الشاعر كان قد جمع في أحاسيسه بين تذكر الوطن والأهل والأحبة وبين

(٣٠) معجم البلدان ٤ م ٧٤٧ والأخبار، الطوال ١٣٨ وينظر بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير ٤١٧.

أحاسيس الجهاد، وعلى كل ذلك فهي أحاسيس تنبض بها الصورة التي انطلقت من ساحة المجالدة وتستحضر خيال الحبيبة، فالشاعر في تواصل عاطفي وفكري، فرحلته، إلى ارض الجهاد كانت فسحة شعورية امتزجت فيها عاطفته الذاتية وفكرته العقدية... ولقد نسج الشاعر صور بطولاته على صعيد جلولاء ونهاوند متمنياً لو كانت حبيبته رأتْ ما قدم من شجاعة، غير أنه راح يسجل لها على شريط من الشعر ما لم تره عيناها، فكانت صورة فنية جميلة ظلت على مدى السنين تنطلق بأفعال الرجال في ثغور المسلمين مرابطين مجاهدين... يقول: (٣١)

ولو شـــهدت يومي جلولاءَ حربَنا ... ويومَ نهاوندَ المهول اســـتهلّتِ

إذن لرأتْ حربَ امرىءٍ غير خاملٍ ... مجيدٍ بطعن الرمح اروع مصلتِ

دفعت عليهم رحلتي وفوارســـــي ... وجرّدتُ ســـيفي فيهمُ ثم إلتي

إن المجاهد في صورته البطولية يحدد ساحات القتال مدنا ومواطن معروفة دفعا لأية ريبة في صدق ما يروي، وكذلك كان كل هؤلاء المجاهدين المرابطين في الثغور الإسلامية.

وتهيج بمجاهد آخر في ارض الغربة الذكرى فيبكي نجدا بلوعة ووجد ويبكي أحبته ومنهم (ريا) حبيبته فيقول(٣٢):

ابتكي على نجد وريا ولن ترى ... بعينيك ريا ما خبيت ولا نجـــدا

ولا واجد ريح الخزامى تسوقها ... رياح الصبا تعلو دكادك أو دهرا

تبدلت من ريا وجارات بيتـــها ... قرى نبطيات يســـمينني (مردا)(*)

---

(٣١) م.ن ٤ / ٩٠٦.

(٣٢) م.ن.

(*) مردا: رجل باللغة الفارسية.

الا أيها البرق الذي بات يرتقى ويجلو دجا الظلماء ذكرتني نجدا

ألم تر أن الليل يقصر طولـــه بنجـــــد وتزداد الرياح به بردا

يستهل الشاعر مقطوعته بالهمزة الاستفهامية التي خرجت في مدلولها اللغوي إلى تقرير حال متخيلة عن طلب الجواب مجازاً، فالشاعر يحس بعد معاناة من طول ليالي البعد بالفرق الكبير بين نجد وبين بلاد الغربة، فليل نجد لجماله والأنس فيه قصير بارد ونسائم نجد عذبة عذوبة الحياة فيها لأنه كان آنس الطمأنينة والحب في ذراها غير أن الغربة تجعل الليالي يطول فيها الزمن، فهو منتظر على المدى العودّ الأحمد حتى اليأس.

إن (ريا) الشاعر ما فتئت تعيش في أعماقه في غربته، فهو يبكيها وقد ملأ اليأس فؤاده، وإذا كانت أسماء النسوة في أشعار العرب رموزا، فريا في أشعار الجندي العربي ذاك رمز الصبا والخصب والخضرة التي فارقها إلى غير عودة، إنه في وحدة موحشة تعتصر قلبه، غير أن (ريا) تبقى الأمل المضمخ بعطر الخزامى الذي دخل وجدان العربي والشاعر خاصة تأتيه بهذا العبق ريح الصبا الرخية التي تهب نسما وتأتي هونا ويبقى الأمل في بأرق السماء، فقد طالما شام المتيم البرق فظل طوال الليل يرقبه لأنه يرى أنه سيبشر بالغيث ويجلو عنه غمّة البعد والغربة كما يجلو بارقُه دجى الظلماء.

إن الشاعر ذاك كان يرى في بعض غربته اغترابا لأنه ملازم ذلك المكان بأمر خارج عن إرادته فهو جندي مرابط هناك في سبيل الله، وليس له إلى العودة سبيل حتى حين، ولا يستطيع أن يكيف حاله مع الحياة، فتراه يطير صوب ملاعب الصبا مع من يسير إليها فيقول[٣٣]:

(٣٣) معجم البلدان ٤ / ٧٤٩.

امغتربا اصبحتُ في رامَهُرْمُـــزِ ألا كلُّ كعبيِّ هِناك غريـــبُ[٣٤]

اذا راحَ ركبٌ مُصْعِدونَ فقلبُـــهُ معَ المصعدينَ الرائحينَ جَنيبُ

وإنَ القليبَ الفردَ من أيمن الحمى إلـــيَّ وإن لم آتهِ لحبيـــــبُ

ولا خيرَ في الدنيا إذا لم ترُبِـــها حبيبا ولم يَطربْ اليكَ حبيـــبُ

وقد يشرك المجاهد المغترب النخلة رمز بلاد العرب في غربته فهذا جندي في القادسية يُحمل رثيثاً إلى ظل نخلة بين حصن العُذيب والقادسية – وليس بينهم يومئذ نخلة سواها – فينتهي بهم المقام إليها ويستروح في ظلها فتثور في نفسه لواعِجُ الغربة ويراها غريبة هي الأخرى ليشتركا في الشعور كما يرى ثم يدعو لها بالسلامة في وحدتها ويقول[٣٥]:

الايا آسلمي يا نخلةً بينَ قادسٍ وبينَ العُذيبِ لا يجاوركِ النخـــلُ

ويدعو لها مجاهد آخر بالسقيا فيقول:

ايا نخلة الجرعاء يا جرعة العِدا سقَتكِ الغوادي والغيوثُ الهواطلُ

وآخر ... وآخر ... إنها لمشاعر صادقة وأحاسيس مرهفة تؤكد وشيجة القربى الحميمة بينهما، بين المجاهد البعيد عن أرضه وبين النخلة الغريبة هناك كما يراها وانه للحنين الذي يتدفق بحرارة وصدق في نطاق وجداني رفيق، وكثيرا ما بكي المغتربون ديارهم فدعوا لها بالسقيا، والدعاء بالسقيا طلب الرحمة كما مرّ فهذا واحد يدعو لدياره حين ارتحل قومه إليها وكان قد أخذته الحمى عند ماء بعيدا

(٣٤) لان كعبا قبيلة عريقة وهناك مع الشاعر منهم الكثير فهو يعني كل عربي بذلك.

(٣٥) تاريخ الطبري ٣ / ٥٥٠ ومروج الذهب ٢ / ٣٢٦.

عن أهله، فيرسل بأناته إلى وطنه لان وطنه هو صلته بأهلـه وبذلك يـأمل أن تـدوم حياته معهم عن طريق ما تجود به السماء من غيث، لذلك فهو يقول[٣٦]:

سقى الله ما بين القفيل فطابـــة فما دون أرمام فما فوق منشد

أما القعقاع فيتوجه إلى الله تعالى بالدعاء لقبر خالد بن يعمر الذي استشهد في إحدى معارك الفتوح فيسأله الرحمة ويقول[٣٧]:

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر اذا ارتحل السفـار لم يرتحـــل

سقى الله أرضا حلـها قبر خالـــد ذهاب غواد مد جنات تجلجـل

فقد مات شـهيدا فـي ارض تشـعر بالغربـة، هنـاك فـي ثغـور المسـلمين ومـع ذلك فدلالة السقيا تؤكد أن القعقاع واثـق بـان خـالدا سـينعم بينكـم برحمـة الله بغيث دؤوب يستجلب ما ينبت جراه رحمه ورضا.

٤. وصف البلاد المفتوحة والمشاهد الغريبة.

اهتم الفاتحون بما لم يكونوا قد ألفوه فـي ديـارهم، فراحـوا يصفـون القصـور والمعـابد والجبـال والأشـجار والثلـوج والحيـوان كـالفيل الـذي رأوه أول مـرة فـي القادسـية ... وصـفوا هذه البـلاد علـى نحويـن: الأول وصـف المعجـب المسـتمتع بطيبها المستروح في ربوعها، والثاني وصف النافر منـها، الضـائق بـها، وبخاصـة حين عانى هـؤلاء مـن اختـلاف المنـاخ بيـن البيئتيـن وحيـن أحسـوا بـالبعد السـحيق

(٣٦) ديوان زيد الخيل ٣٧.

(٣٧) شعراء إسلاميون ٤٦.

بينهما... وهذا واحد ممن أحس بذلك وهو في واحد من ثغور بلاد المسلمين يضيق ببرده فيصف معاناته ويقول[٣٨]:

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت أرض تتابع ثلجها المذرور

اذ لا ترى ذابزة مشـــــهورة إلا تخال كانه مقـــــرور

كلتا يديه لا تزايل ثوبـــــــه كل الشتاء كانه ماســـور

انه يرى الناس في ملابسهم مقرورين على المدى، فإذا نظرنا في البيت الأول لوجدنا في قوله (تنكرت أرض ...) مجازا عقليا والمقصود تنكر أهلها والعلاقة محلية أي انه ذكر المحل وأراد من يحل فيه... وفي هذا المجاز تصوير لعمق التنكر الذي يلقاه منهم مما يعمق إحساسه بالغربة، أما البيتان الآخران اللذان يصف فيهما أهل تلك البلاد: (إذ لا ترى ... وكلتا يديه ...) ففيهما صورة تشبيهية غريبة ترسم صورة دقيقة في جزئياتها في التعبير عن حالة تسلط هذه المدينة بجوها الشتائي وكأنها تقهر أهلها في صورة الأسر، وذلك لشدة البرد، وكثرة الثلوج التي تمنع أو تحد من الحركة والحياة فكيف بالمرابطين في تلك الاصقاع.

وهذا آخر تضايقه كثرة الذباب الذي آذاه وآذى راحلته حين تريد ورد الماء لتروي ظمأها، فيقول[٣٩]:

ويمنعها من ماء كل شريعة رفاق من الذبان زرق عيونها

وهناك من يروقهم جمال تلك البلاد فيصفونها ويصفون اثر جمالها فيهم، ونافع بن الأسود واحد من هؤلاء وهو القائل[٤٠]:

---

(٣٨) معجم البلدان ٤ / ٥١٠.

(٣٩) تاريخ الطبري ٣ / ٣٧٣.

(٤٠) شعراء إسلاميون ٩٦.

رضينا بريف الري والري بلدة لها زينة في عيشها المتواتر

لـــــها نشز في كل آخر ليلـــة تذكر اعراس الملوك الاكابـر

وكانت الرياض والزهور غالبا ما تهيج الذكريات. فيذكرهم جمالها جمال الأحبة وجمال الأيام الخوالي فإذا هبت نسمة ندية من صوب الخزامي شخصت حيالهم صور الأحبة تضوع عطرا، فهذا الأسود بن قطبة يرى من جرجان طبيعة لم يألفها في أرضه فيرسل إلى ذويه وصف حاله ويطمئنهم عليه[٤١]:

الا آبلغ اسيدا أن عرضت باننا بجرجان في خضر الرياض النواضر

انه يبدو مطمئنا إلى الأرض الخضراء تلك فهو يبعث إلى اسيد أحد ذويه إذا ما لقيه الموصى وليس حتما قال: (ان عرضت) ولم يلح في الوصاة ثم يؤكد ذلك حين قال (في خضر الرياض) فكأنه في قلبها مستقرا في خضرتها، غير أني أرى انه في قرارة نفسه يتوق إلى وصول وصيته بسرعة حين وصل همزة القطع محاولة منه للإسراع بإيصالها، فقال: الا آبلغ.

أما ربيعة بن مقروم فيصف ديار ملوك الفرس الخاوية وجندهم وفيلتهم المنهزمة فيقول[٤٢]:

ودخلت أبنية الملوك عليـــــهم ولشر قول المرء ما لم يفعل

وشهدت معركة الفيول وحولـها ابناء فارس بيضهم كالاعبل

أما حارثة بن النمر فيصف كنائس الروم وقد خوت بعد معركة اليرموك فيقول[٤٣]:

---

(٤١) معجم البلدان ٢ / ١٢١.

(٤٢) شعراء إسلاميون ٢٧٠.

(٤٣)الإصابة ٢ / ٥٦.

لله باليرموك قوم طحطحـوا | أحساب عاتي الروم بالاقدام
فتعطلت منهم كنائس زخرفت | بالشام ذات فسافس ورخـام

فقد تركـوا تلـك الكنـائس علـى نفاسـتها الماديـة والمعنويـة ... تركوهـا مضطرين، وكان الفيل اكثر ما لفت أنظار الفاتحين والشعراء منهم والرجاز خاصـة فقد وصفوه وصفا دقيقا في مقطوعات صاحبت معارك الجهاد ... وهذه واحـدة من تلك المقطوعات من أشعار الثغور(٤٤):

أجرد أعلى الجسم منه اضخم
يجر أرحـاء ثقـالا تحطـم
وحنك حيـن يمـد افقـم
ومشفر حين يمـد سرطـم

وهناك أوصاف أخرى جاءت في أشعار المجاهدين لا يسع المجـال لذكرهـا، ولم يقف المجاهدون عن الوصف هذا وعن بث مشاعر الحب والحنيـن إلـى الوطـن لم يكتفوا بذلك وحسب بل راحوا يسدون النصح للناس لان رسـالتهم دعـوة وهدايـة، فهذا واحد مـن المجـاهدين يقدم شكوى إلـى الخليفـة الفـاروق رضـي الله عنـه بعـد أن قدم النصح لبعض عمـال الدولـة فـي تلـك البـلاد حيـن اشـتط بعضـهم فـي مسائل تخص الرعية وازوروا عن جادة الصواب، من ذلك قوله(٤٥):

الا ابلغ امير المؤمنين رسـالـة | فأنت أمين الله في النهي والامـر
وانت امـين الله فينا ومـن يكـن | امينا لرب العرش يسلم له صدري
فلا تدعن اهل الرساتيق والقـرى | يسيغون مال الله فـي الادم الوفـر

(٤٤) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٧ / ١٧٢.
(٤٥) فتوح البلدان، أبو العباس البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) حققه صلاح الدين المنجد ١٩٥٦م ١٣٧٣ هـ.

فأرسل إلى الحجاج وآعرف صوابه وارسل إلى جزء وارسل إلى بشر

ويذكر أسماء آخرين من عمال الدولة ثم يقول:

فقاسمهم نفسي نداؤك انهم سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر

وقد روي أن الخليفة الفاروق رضي الله عنه شاطرهم الأموال بعد أن تحقق من صدق الشكوى، وفي ذلك يروي أن مالك بن انس سئل عن السر في ما فعله الخليفة عمر رضي الله عنه فقال: (أموال كثيرة ظهرت عليهم) ويروى أن شاعرا كتب إليه يقول:

نحج إذا حجوا ونغزوا إذا غزوا فاني لهم وفرو لسنابذي وفر

إذا التاجر الهندي جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجري

فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون أن شاطرتهم منك بالشطر

قال فشاطرهم أموالهم(٤٦)

وهناك موضوعات شعرية أخرى قراناها في نتاجات شعراء الثغور، منها المدح والفخر والهجاء والغزل ومنها مقطوعات في العصبية القبيلة، فقد حدث أن استقرت جماعات في الثغور بعد معارك الجهاد وجراء التجارة أو ممن ينفون إلى تلك البلاد ولا شك إن تلك الجماعات تنتمي إلى قبائل متعددة يمانية وقيسية ومضرية وسواها، وكانت تبدو الشحناء بين الحين والآخر بين نفر من هؤلاء وآخر من هؤلاء، فهذا موسى بن عبد الله القيسي يتمنى على الله تعالى أن تزول هذه الشحناء ويعود العرب المسلمون هناك إلى سابق تآلفهم وعزهم باجتماع كلمتهم ويقول(٤٧):

(٤٦) م.ن، وينظر: الإسلام والشعر، د. سامي العاني، عالم المعرفة، ١٩٨٣، ص ٩٥.

(٤٧) فتوح البلدان، ٣٧٧.

ومن عجب الأيام والدهر أصبحت تميم وقيس بالرماح تشاجر

وكنا يدا حتى سعى الدهر بيننا فصرفنا والدهر فيه الدوائر

وهناك أخبار أخرى متفرقة لا تشكل ظواهر خاصة في تلك الثغور سوى ما اشترك فيه الشعراء هناك مع سواهم من الناس بالمشاعر كالغزل وسواه من حب وكره ومما جاء على غير ما أعتاده الشعراء في صدر الإسلام مما تأثر فيه الجند جراء اختلاطهم بالأمم الأخرى في البلاد المفتوحة، وتلك تعد هنات في حياة الناس والشاعر خاصة، تند منه إبان لحظات تعتريه من الضعف البشري ما تفتأ أن تزول فيعود الرجل إلى قوته ويقينه وأيمانه ويرفض كل طارئ على حياته.

الخاتمة

بعد رحلتنا بين قصائد ومقطوعات شعراء الثغور المجاهدين نرسو إلى الخاتمة لنبين أهم امتازت به تلك الأشعار من مزايا ونلخص هذه الرحلة بأسطر علها تنقل الصورة الحقيقية للمتلقي:

١. امتازت أشعار الفاتحين وسكنة الثغور منهم خاصة بكونها مقطعات شأن أشعار الفتوح عامة.
٢. غابت إلى حد كبير أشعار العصبيات القبلية والنعرات الجاهلية وبخاصة حين التفاخر والمديح والهجاء ولم نقرأ آثارا لمجون أو لهو في تلك الأشعار.
٣. قرأنا أشعارا لمجاهدين لم يكونوا عرفوا بالشعر من قبل أو انهم كانوا مغمورين في ميدان الشعر.

٤. كان اثر الإسلام في أشعارهم واضحا وخاصة في تغنيهم بالنصر وأسبابه وفي مقطعات الرثاء، فقد طغت سمات العزاء الإسلامي فيها مستلهمين من القرآن والسنة تلك المعاني.

٥. ضاق بعض المجاهدين بتلك البلاد البعيدة لأسباب عديدة أهمها اختلاف أجوائها وتضاريسها عن أجواء وتضاريس بلادهم والبعد بين المكانين، لذلك فقد استبد بهم الحنين فكانت قصائد تزخر ببث لواعج الشوق والحنين إلى الأهل والبلاد وملاعب الصبا.

٦. ومن أهم طوابع تلك الأشعار الفنية فضلا عن الإيجاز والقصر وانه شعر مقطعات اتصافه بالعفوية وعدم التكلف وبالصدق والالتزام ودقة الوصف، ولم تكن ظروف القتال وحياة الجند غير المستقرة لتساعد على نظم ذي امتداد وانبساط حتى المستقرون في الثغور لم تكن لتساعدهم على توليد المعاني وتشقيق الكلام، فهو يقدح زناده ويومض خطراته ومشاعره وكأنها بريق خاطف يكثف فيه انفعالاته اللاهبة وحنينه الصادق بعفوية من غير تقعر أو تكلف أو مراجعة وتهذيب – في الأغلب – لأنه كما قلنا استجابات لمشاعر الجند في بلاد الغربة.

٧. سجلت أشعار الفاتحين والمرابطين في الثغور أسماء لأعداد من المدن التي دارت على صعيدها معارك الجهاد وفتحها المسلمون وأسماء مناطق شاهدوها هناك وأسماء قادة تمكنوا منهم ومرغوا كبرياءهم وأذلوا شموخهم كالفيرزان ويزد جرد وأرطبون ومردان وباذان ورستم وسواهم،

ومن المدن والأماكن:

نهاوند وكسكر والجوزجان وجرجان وطالقان والري وطاووس ومرد واليس وسوى ذلك كثير.

Abstract

The poetry in Islamic sectors in the beginning of Islam

Dr. Al-Thaher, A. F.(*)

The sector are places or towns which the Muslims conquered and they lived there regarding them as starting points for spreading Islam in other places. Poetry in such places is regarded as a means of entertainment.

Also, it is used for arousing the zeal of the Muslim soldiers. It is used to describe invaded countries and to elegize the Muslim martyrs. It is also characterized by yearning for families and homeland.

In fact, those heroes were truthful in their poetry as well as in their conquest.

(*) Department of Arabic Language / University of Mosul.